وزارة الأوقاف
وشئون الأزهر

الأزهر الشريف

تاريخه وتطوره

١٣٨٣ — ١٩٦٤ م

مقدمة

بقلم

الدكتور محمد البهي

وزير الأوقاف وشئون الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على نعمه المتواليات والصلاة والسلام على خاتم رسله وأنبيائه محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحابته ومن نهج نهجهم وسار على سبيلهم فى ثقة وعزم وايمان .

(وبعد) ففى ربوع النيل قامت أقدم جامعة علمية عرفها التاريخ هى جامعة عين شمس وظلت تؤدى رسالتها آلاف الأعوام ، ثم حملت الرسالة من بعدها جامعة الاسكندرية فنقلت حضارة العالم القديم الى القرون الوسطى وظلت مصدر اشعاع ومنبع عرفان حتى بزغت شمس الاسلام فغمرت بأضوائها العالمين .

وفى ظل الاسلام وعلى ضوء هداه قامت فى ربوع النيل أقدم جامعة اسلامية فى مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط سنة ٢١ هـ واستمرت فى أداء رسالتها الاسلامية من روحية ومادية حتى قام الجامع الأزهر سنة ٣٦١ هـ فأسهم معها فى أداء هذه الرسالة بقوة وعزم وايمان وظلا معا ينشران أضواء الثقافة الاسلامية عدة قرون ، ثم حدثت أحداث قعدت بجامع الفسطاط عن أداء رسالته الثقافية فانفرد الجامع الأزهر بالزعامة العلمية عبر القرون وظل مصدر علم ومنار هداية ومنبع كرامة وعزة حتى الآن .

وغير عجيب أن تكون المساجد مقرا للجامعات الاسلامية منذ فجر الاسلام حتى العصر الحديث فان الاسلام لم يقصر رسالة المساجد على أداء الصلوات فحسب ، ولكنه جعل لها أهدافا رئيسية سامية حيث أعدها

لتكون مقامات ذكر وصلاة ، ومواطن تلاوة وتدبر ، ومعاهد علم وتهذيب ، وندوات رأى ومشورة ، ومجالس صلح أو قضاء ، وملتقى تعاون وتكافل ، ولقد أدت المساجد رسالتها خير أداء فالتفت حولها القلوب ، وتلاقت فيها الأرواح وانبعثت منها تيارات الثقافة والحضارة والعمران ؛

والتزم الخلفاء الراشدون ومن تلاهم أن يؤموا الناس فى الصلوات ، وأن يلقوا فيهم الخطب الهامة سواء كانت تتعلق بشئون العبادات أم بشئون السياسة العامة للدولة ، واذا حزب أمر هام أعلنوا أن « الصلاة جامعة » فيجتمع المسلمون بالمسجد لأداء الصلاة ثم يستشير الخليفة ذوى الرأى والتجربة منهم فيما جد من أحداث ، ثم يعلن رأيه للجميع فيلتزم به الجميع .

وبهذا كانت المساجد الاسلامية تؤدى دور المجالس النيابية الآن .

واذا كانت المساجد الاسلامية قد قامت بأدوار هامة فى تاريخ الأمة الاسلامية فان الأزهر قام بدور رئيسى لا فى تاريخ مصر فحسب بل فى تاريخ الأمم العربية والشعوب الاسلامية على مر العصور ، فان له أدوارا سياسية خالدة دفع فيها الظلم والجور وأقر العدل ونشر الأمان

كما أن له أدوارا علمية خالدة بعث فيها أشعة العلم والعرفان فى أقطار العالم وحفظ فيها اللغة العربية والثقافة الاسلامية فى عصر التدهور والانحطاط وسيادة الاستعمار الغربى على الأقطار الاسلامية .

كما أن للأزهر أدوارا روحية خالدة قاوم فيها شتى تيارات الالحاد والانحرافات والمذاهب الهدامة والحملات التبشيرية ودعاة الفوضى والانحلال .

ولهذا كان الأزهر مقصد طلاب العلوم العربية والثقافات الاسلامية من شتى أنحاء العالم . كما كان مصدر الدعوة الاسلامية الى مختلف

الأمم والشعوب ، وهو الآن ملتقى آلاف الطلاب من أنحاء العالم كما أنه مصدر مئات العلماء الى مختلف القارات .

وطالما كان الأزهر ملاذا لعامة الشعب يهرعون اليه فى الأزمات ملتمسين من علمائه الارشاد والتوجيه ملقين اليهم بالقيادة الرشيدة الحكيمة فيجدون لديهم وعندهم تفريج الكربات وحل الأزمات ومواطن الأمان . وكثيرا ما كان علماء الأزهر يقفون فى وجه الطغاة المستبدين من الحكام البساطشين ، وكان عامة الشعب اذا وقع عليهم حيف أودهمهم اغتصاب هرعوا جماعات الى الجامع الأزهر فى هتاف وصياح وخلفهم النساء والصبيان ، ثم يصعد جماعة منهم الى مآذنه مستصرخين الناس فيفض العلماء حلقات الدراسة ويغلقون أبواب الأزهر ويستمعون الى شكاة المستغيثين ثم يؤلفون وفدا منهم لمقابلة الحكام المستبدين وانذارهم بالثورة المدمرة فلا يلبث هؤلاء الحكام أن يتراجعوا صاغرين نادمين ؛ وقد ذكر العلامة الجبرتى مواقف رائعة خالدة لهؤلاء العلماء الأعلام ، ونكتفى هنا بذكر بعض الأمثلة التى تدل على أن هؤلاء العلماء لم يكونوا يدرسون الجهاد دراسة نظرية فحسب ، ولكنهم كانوا يدرسونه ويطبقونه تطبيقا عمليا فى المواقف التى تستدعى الجهاد .

ذكر الجبرتى فى تاريخه أن الحاكم حسين بك المعروف بـ « شقفت » كان رجلا طاغية جبارا يصادر أموال الرعية ويتهجم على البيوت وانه ذهب بجنوده الى بيت أحمد سالم الجزار شيخ دراويش البيومى فنهب ما فيه حتى الفراش وحلى النساء ، فحضر أهل الحسينية الى الجامع الأزهر ومعهم الطبول والتف حولهم العامة وبأيديهم العصى وتفرقوا فى أنحاء الأزهر وأغلقوا أبوابه وصعد بعضهم الى مآذنه يصيحون ويضربون الطبول وانتشر فريق منهم فى الأسواق القريبة من الأزهر فى حالة منكرة ، ثم قابلوا الشيخ الدردير فذكروا له ما حدث ، فغضب لحرمات الله وقال

لهم فى غد نجمع أهل الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة وأركب معكم وننهب بيوت المماليك كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم . فارتاع المماليك وأوفدوا رسلهم الى الشيخ الدردير نادمين طالبين اليه أن يرسل قائمة بما نهبه حسين بك وجنوده ليردوه اليه ، وفعلا ردوا اليه جميع ما اغتصبوه .

وكثيرا ما كانوا يلفتون الحكام الى أن طاعة الحاكم واجبة اذا لم تخالف الشرع وأن قاعدة الحكومة الاسلامية أنه « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وفى أحد المواقف صب الشيخ على الصعيدى غضبه على الأمير يوسف بك الكبير فى وجهه ، ولعن من باعه ، ومن اشتراه ، ومن جعله أميرا ، فاسترضاه الأمير ونزل على مشورته وأخذ بآرائه .

وكان الشيخ الدردير شجاعا مقداما لا يخشى فى الحق لومة لائم . حدث يوما وهو فى مولد السيد البدوى أن صادر أحد الحكام أموال بعض الرعية فطلب من بعض أتباعه أن يذهبوا الى هذا الحاكم ليطلبوا اليه رد الأموال المغصوبة ، ولكنهم خشوا أن يذهبوا اليه فركب الشيخ بنفسه وتبعه كثير من العامة حتى دخل خيمة هذا الحاكم وهو راكب بغلته وأغلظ له القول فاضطر الى ارضائه وارجاع ما اغتصبه من أموال وفى سنة ١٢٠٩ « سنة ١٧٩٥ » حدث عدوان من أمراء المماليك على بعض فلاحى مدينة بلبيس فحضر وفد منهم الى الشيخ عبد الله الشرقاوى فغضب وتوجه الى الأزهر فجمع شيوخه وأغلقوا أبوابه وأمروا الناس بترك الأسواق والمتاجر ، وركب الشيوخ فى اليوم التالى وتبعهم كثير من الناس الى بيت الشيخ محمد السادات ، واحتشدت جموع عديدة من الشعب فأرسل اليهم الأمراء أحدهم وهو أيوب بك الدفتردار فسألهم عن أمرهم فقالوا : نريد العدل ورفع الظلم والجور واقامة الشرع وابطال الحوادث والمكوسات أى الضرائب ؛ وخشى ابراهيم بك زعيم الأمراء مغبة الثورة فأرسل الى العلماء ، وكانوا يقضون ليلتهم داخل الأزهر قائلا لهم : انه يؤيدهم فى غضبهم ويبرىء نفسه من تبعة الظلم ويلقيها على

كاهل شريكه مراد بك ، وأرسل فى الوقت نفسه الى مراد يحذره عاقبة الثورة واستسلم مراد بك ورد ما اغتصبه من أموال ، وأرضى نفوس المظلومين .

ولكن العلماء لم يقنعوا بهذا بل أصروا على وضع نظام يمنع الظلم ويرد العدوان ، فاجتمع الأمراء وأرسلوا الى العلماء فحضر منهم الشيخ السادات والسيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ الأمير وكان هؤلاء رسل الثورة وقوادها ، وطال الجـدل بين الشيوخ والأمراء ، ثم انتهى بأن أعلن الظالمون أنهم تابوا والتزموا ما اشترطه عليهم العلماء ، وأعلنوا أنهم سيبطلون المظالم والضرائب المحدثة ، ويأمرون أتبـاعهم بالكف عن سلب أموال النـاس ويرسلون أوقاف الحـرمين الشريفين والعوائد المقررة اليهما ويسيرون فى الناس سيرة حسنة .

وكان قاضى القضاة حاضرا هذا المجلس فكتب على الأمراء وثيقة أمضاها الوالى العثمانى وابراهيم بك ومراد بك شيخا البلد ، وانصرف العلماء من هذا المجلس وسط جموع الشعب التى أعلنت بهجتها بهذه الوثيقة الخالدة التى هى وثيقة الشبه بوثيقة حقوق الانسان .

واستطاع الشعب تحت قيادة علمائه أن يرغم الخليفة العثمانى على عزل واليه المستبد بمصر خورشيد باشا ، فقد قاد السيد عمر مكرم — ومعه طائفة من العلماء — جموع الشعب وحاصر هـذا الوالى بالقلعة وأعلن عزله ، فأرسل اليه خورشيد باشا رسولا يقول له : كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم ؟ وقد قال الله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فأجابه عمر مكرم بقوله : « أولوا الأمر هم العلماء ، وحملة الشريعة ، والسلطان العادل ، وهذا الرجل ظالم ، وللناس أن يعزلوا الحاكم الظالم ، وأن يخلعوه حتى الخليفة نفسه ، والسلطان اذا سار فيهم بالجور فانهم يعزلونه ويخلعونه » .

ولم يلبث السلطان العثمانى أن نزل على حـكم العلماء فعزل هذا الوالى الجبار ؛ وهنا تتجلى سماحة السيد عمر مكرم حيث أرسل مائتين

من الابل حملت متاع الوالى والمحاصرين معه من رجال ونساء وأنزله فى ضيافته بضعة أيام ليحميه من غضب الشعب وييسر له سبيل النجاة .

وعندما غزا الفرنسيون مصر بقيادة نابليون قاومهم الشعب مقاومة عنيفة تحت قيادة علماء الأزهر حتى اضطر نابليون الى أن يعود الى فرنسا فى أواخر أغسطس سنة ١٧٩٩ تاركا خليفته كليبر قائدا للحملة الفرنسية بمصر ، فاغتاله طالب أزهرى هو سليمان الحلبى فى يونية سنة ١٨٠٠ . وأعدم هو وأربعة آخرون من شيوخ الأزهر وطلابه ؛ وكان نابليون قد أعدم — من قبل ثلاثة عشر عالما من علماء الأزهر سنة ١٧٩٨ . وبعد كفاح مرير خرجت الحملة الفرنسية من مصر سنة ١٨٠١ وفتحت أبواب الأزهر بعد أن ظل مغلقا زهاء عام .

ولما جردت انجلترا حملتها على مصر تحت قيادة الجنرال فريزر سنة ١٨٠٧ ثار الشعب تحت قيادة علماء الأزهر . وقام السيد عمر مكرم بحشد المقاومين واقامة الاستحكامات الدفاعية وحفر الخنادق حول القاهرة ، وكان يذهب صباح كل يوم مع الجماهير المحتشدة حيث يقوم العمال بعمل الاستحكامات الحربية ويظل سحابة نهاره بينهم ، وكان أحيانا يشاركهم اقامة هذه الاستحكامات ، فيثير فيهم طاقات من الحماسة والوطنية وحب الاستشهاد ، وباءت هذه الحملة بالفشل والخسران .

ولقد استطاع علماء الأزهر أن يفرضوا على الخليفة العثمانى الوالى الذى ارتضوه وهو محمد على باشا بعد أن أخذوا عليه العهود والمواثيق وأغلظ الايمان .

ولكنه ما لبث أن نقض ما أبرمه من عهود وخان ما بذله من وعود واستبد بالحكم فثار علماء الأزهر عليه تحت قيادة السيد عمر مكرم وعقدوا مجلسا عاما فى أول يوليه سنة ١٨٠٩ وأقسموا فيه على ألا يلينوا حتى ينزل هذا الوالى العنيد على رأيهم ويجيب مطالبهم التى تتلخص فى عدم فرض ضرائب جديدة والغاء الضرائب المستحدثة وظل محمد على يداريهم ويطاولهم حتى تمكن من جمع السلطات جميعها فى يديه فنفى عمر

مكرم بعيدا عن القاهرة وشرد باقى العلماء وفتك بأمراء المماليك فهدأت حركة المقاومة حتى حين .

ولما استبد خلفاؤه بالحكم وعصفوا بحرية الشعب أشعل علماء الأزهر نيران الثورة ضد هذه الأسرة الباغية بقيادة الزعيم أحمد عرابى الذى تخرج من الأزهر ثم أتم دراسته الحربية ، وكان من أبطال هذه الثورة من رجال الأزهر : السيد عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية وزعيم الصحافة الحرة ، والشيخ محمد عبده المصلح الاجتماعى الكبير .

وقد أصدر علماء الأزهر فى هذه الثورة فتوى بعزل الخديو توفيق لأنه مالأ الانكليز ضد الثورة العرابية .

ومن المواقف المشرفة لعلماء الأزهر فى هذه الثورة موقف الشيخ حسن العدوى فقد كان معدودا فى زمرة علماء الأزهر الذين أفتوا بعزل الخديوى توفيق ، فلما اخفقت الثورة العرابية قدموه ــ مع من قدموهم ــ الى المحاكمة وكان الجميع يتوقعون حكم الاعدام ، فلما استدعوه من السجن الى المحكمة وسألوه هل أفتيت بعزل الخديوى ؟ قال : لم أفت ، ومع هذا ان جئتمونى الآن بفتوى بذلك فانى أوقعها ، وما فى وسعكم وأنتم مسلمون أن تنكروا أن الخديوى توفيق مستحق للعزل لأنه خرج عن الدين والوطن .

أعلن هذا وهو يتوقع الحكم عليه بالاعدام ولكنه آثر الاستشهاد على أن يكتم حكم الله ؛ وقد حكم عليه بتجريده من جميع رتبه وامتيازاته

وفى سنة ١٩١٩ اندلعت الثورة المصرية ضد احتلال الانكليز بقيادة الزعيم سعد زغلول الذى تخرج من الازهر وكان خطيبا مفوها وزعيما سياسيا بارعا ، وأعانه فى هذه الثورة بعض علماء الأزهر المستنيرين وكانت الخطب الحماسية والقصائد الوطنية تلقى على منبر الازهر وترددها الصحافة فتثير ثائرة الشعب المصرى فيستجيب لهذه الصيحات المدوية ويحولها الى مقاومة عنيفة تسحق قوة الاستعمار .

ومن هذا كله يتضح أن الأزهر لم يكن موقفه سلبيا من الحياة العامة

بل شارك فيها بدور ايجابى فى معظم العصور ، وبهذا حفظ للاسلام مكانته وللشعب عزته ، وطبق تعاليم الاسلام فى أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وفى أن الجهاد فرض حتمى لدفع العدوان ، وفى أن من قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد .

ولم يكن دور الأزهر الثقافى مقصورا على العلوم الدينيـــة واللغوية كما يظن الكثيرون ، فان الاسلام لا يفرق بين المعارف والعلوم بل يدعو الى التدبر فى ملكوت السموات والأرض ويهتف فى أسماع أتبـــاعه ان الله خلق لكم ما فى الأرض جميعا وانه ســخر لكم « الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبـين وسخر لكم الليل والنهار .. » وأنه « سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحمـا طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها » وانه « جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلو من رزقه .. » وهو الذى « جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا » ، « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » فالاسلام يجمع بين الدنيا والدين وبين الأرض والسماء وبين المطالب المادية والسبحات الروحية ويقرر أن طلب العلم على اطلاقه فريضة على كل مسلم ومسلمة ويؤكد أن السعى فى سبيل الرزق من أقرب العبادات الى الله .

ولهذا كان علماء المسلمين فى عصر ازدهار الاسلام يدرسون جميـع أنواع العلوم والفنون فكان منهم الفقيه : الطبيب ، والفلكى ، والمهندس ، والعالم الطبيعى ، والكيميائى ، والجغرافى ، والمـؤرخ ، والرحالة ، والرياضى .

وكان هذا يتجلى فى علماء الازهر على نطاق يختلف قلة أو كثرة بحسب اختلاف العصور ، وكانوا يسمون علم الفلك بعلم الهيئة ويسمون علوم الاحياء بعلم المواليد والكيمياء بعلم التركيب .

وظل علماء الأزهر يحرصون على دراسة هذه العلوم حتى فى أشد عهود التدهور والجمود ، وان كان هذا فى نطاق يضيق ويتسع تبعا لتأخر الثقافة وانتشار الجمود وسيطرة التقاليد أو تبعا لازدهار المدينة وتقدم العمران .

وحسبنا أن نشير الى سند الشيخ الدمنهورى شيخ الجامع الأزهر فى الفترة من ١١٨٢ هـ حتى سنة ١١٩٠ هـ (١٧٦٧ ــ ١٧٧٦ م) حيث يقول فيه :

« أخذت عن أستاذنا الشيخ على الزعترى ــ خاتمة العارفين بعلم الحساب واستخراج المجهولات وما توقف عليها كالفرائض والميقات ــ وسيلة ابن الهائم ومعونته فى الحساب ، والمقنع لابن الهائم ، ومنظومة الياسمينى فى الجبر والمقابلة .. والمنحرفات للسبط المردينى فى وضع المزاول ، وأخذت عن سيدى أحمد القرافى الحكيم بدار الشفاء بالقراءة عليه : كتاب الموجز واللمحة العفيفية فى أسباب الأمراض وعلاماتها وبعضها من قانون ابن سينا وبعضا من كامل الصناعة وبعضا من منظومة ابن سينا الكبرى والجميع فى الطب .. وقرأت على أستاذنا الشيخ سلامة الفيومى أشكال التأسيس فى الهندسة وبعضا من الجغنيمى فى علم الهيئة وبعضا من رفع الأشكال عن مساحة الأشكال فى علم المساحة » .

واستمر يعدد شيوخه ، والكتب التى قرأها عليهم فى علوم الفلسفة والمنطق والطبيعة والكيمياء والعلوم الرياضية والفلك وعلم الأحياء الى أن قال : « وقرأت على الشيخ محمد الشهير بالشحيمى منظومة الحكيم .. ومنظومة فى علم الأعمال الرصدية وروضة العلوم وبهجة المنطوق والمفهوم لمحمد بن ساعد الأنصارى وهى كتاب يشتمل على سبعة وسبعين علما .. ورسالة فى علم المواليد أعنى الممالك الطبيعية وهى الحيوانات والنباتات والمعادن .. »

ثم أعقب هذا بما طالعه هو بنفسه وحذقه دون الأخذ عن أحد من المشايخ .

والواقع أن من يتتبع تاريخ الأزهر يجد علماءه قد أسهموا فى فى جميع المعارف والعلوم بالدرس والبحث والتأليف فقد كانت الدراسة

بالأزهر فى عهد الفاطميين تغلب عليها الصبغة الدينية واللغوية ولكن كان الى جوارها دروس عديدة فى المنطق والحساب والهندسة والجبر والفلك وهكذا فى معظم العصور .

ولما بدأت النهضة العلمية فى مستهل العصر الحديث لم تجد لها منبعا الا فى رحاب الأزهر الشريف فقد كان معظم المبعوثين الى أوربا من رجال الأزهر النابغين وفى مقدمتهم رفاعة الطهطاوى ، وقد عادوا بعد أن تخصصوا فى مختلف العلوم والفنون فوضعوا أساس النهضة العلمية والفنية والثقافية التى خطت بالبلاد خطوات جبارة فى سبيل النمو والازدهار ، ولما بدأت البلاد تأخذ بأساليب المدنية الحديثة أنشأت عددا من المدارس العليا المتخصصة فاختارت لها النابهين من أبناء الأزهر ، وقد نبغ فى الرعيل الأول من الأطباء علماء أجلاء من نابهى الأزهريين ومن أشهرهم : ابراهيم النبراوى ، وأحمد حسن الرشيدى ، ومحمد على باشا البقلى ، ومأمون بلال ، وهم الذين وضعوا أساس النهضة الطبية فى العصر الحديث ، وعربوا كثيرا من أبحاث الطب الى اللسان العربى المبين . كما نبغ من الأزهريين قضاة ومستشارون وضعوا أسس القضاة الحديث ورسموا دستورا قويما فى المحاماة والقضاء والتشريع ومن ألمعهم الامام الشيخ محمد عبده . وسعد زغلول والامام الشيخ محمد مصطفى المراغى والشيخ الشناوى والشيخ ابراهيم حمروش والشيخ فرج السنهورى ، كما لمعت طائفة منهم فى ميادين الكتابة والشعر والصحافة ، ولما اتسعت ميادين النهضة الحديثة كان البارزون من أبناء الأزهر هم الذين وضعوا الأسس ورفعوا البناء فقد كان أساتذة جامعة القاهرة عند تكوينها من أعلام علماء الأزهر ، وكذلك بقية الجامعات ومن دوحة الأزهر المباركة نبتت مدرسة الألسن « فى عهدها الأول » ومدرسة القضاء الشرعى وكلية دار العلوم .

وعلى الرغم من هذا كله فقد نجح الاستعمار مع أمده الطويل وأساليبه الملتوية فى أن يعوق حركة الأزهر فى النمو والازدهار ، فاستطاع أن يعزل الأزهر وعلماءه عن المشاركة فى بناء النهضة الحديثة الى حد ما ، فقصر جهود علمائه على علوم الدين ، ومكن للمحافظين منهم وسائل السلطان

والتنفيذ وشن على المصلحين حروبا عنيفة أبعدتهم عن مجال الاصلاح والتجديد فأصبحت علوم الأزهريين مقصورة على العلوم الدينية واللغوية، وصارت مراجعهم العلمية من الكتب التى دونها مؤلفوها الأعاجم أو أشباه الأعاجم فى عصور التدهور والانحطاط ، بأساليبها المعقدة وفروضها الخيالية السطحية ، وأصبح الأمر تقليدا للتقليد ــ كما يقول أفلاطون فى حديثه عن الفنون ــ هذا مع تيسر الأصول الدينية الكبرى القوية المعبرة السليمة من الخرافات والأوهام من كتب التفسير والحديث وكتب الأئمة الاعلام فى عصور ازدهار الاسلام وأصبح التعليم فى الأزهر يكاد ينحصر فى طبقات معينة لم تجد أمامها سبيلا غير هذا المعهد للتعليم .

حتى علماء الأزهر أنفسهم ضاقوا بهذا التعلم فلم يكد أحد منهم يوجه أبناءه الى هذا المعهد لأن أبواب الحياة الفسيحة أوصدت فى وجه خريجيه

وكاد الانعزال يتم بين علماء الأزهر والحياة العامة لاختلاف ثقافته اختلافا كليا عن جميع المعاهد والجامعات مما يجعل التجاوب بين أبناء الأزهر وغيرهم من أبناء الجامعات فى حكم المستحيل ، وبهذا تحول تعليم الدين الى حرفة يحترفها الفقراء ومن انقطعت بهم سبل التعليم فى المعاهد والجامعات وأصبح الناس ينظرون الى الاسلام باديا فى مظهر هؤلاء العلماء فظن المخدوعون والمغرضون وقصار النظر أن الاسلام هو هؤلاء العلماء .

ولسنا نزعم أن جميع علماء الأزهر من هذا الطراز فقد ذكرنا أن طائفة من أعلامهم أسهموا فى النهضة الحديثة بأوفى نصيب ولكن الأغلبية منهم كادت تنعزل عن الحياة بحكم انعزال ثقافتها عن بقية الثقافات .

لهذا نادى زعماء الاصلاح فى العصر الحديث بعلاج هذه الحال وكان أول من رفع صوته بهذا النداء هو رفاعة الطهطاوى فى كتابه مناهج الألباب حيث يقول فى نقده لمحمد على « لم يستطع أن يعجم أنوار هذه المعارف المتنوعة بالجامع الأزهر الأنور ، ولم يجذب طلابه الى تكميل عقولهم بالعلوم الحكيمة .. » الى أن يقول عن العلماء : « ان لهم اليد البيضاء فى اتقان الأحكام الشرعية والاعتقادية وما يجب من العلوم الالهية ... غير أن هذا وحده لا يفى للوطن بقضاء الوطر ، والكامل يقبل

الكمال كما هو متعارف عند أهل النظر ... » ثم يدعو الى « معرفة سائر المعارف البشرية المدنية التى لها مدخل فى تقدم الوطنية من كل ما يحمد على تعلمه وتعليمه علمـــاء الأمة المحمدية ، حتى اذا دخلوا فى أمور الدولة يحسن كل منهم فى ابداء المحاسن المدنية قوله لا سيما وأن هذه العلوم الحكيمة العلمية التى تظهر الآن أجنبية هى علوم اسلامية نقلها الأجانب الى لغاتهم من الكتب العربية ولم تزل كتبها الى الآن فى خـزائن ملوك الاسلام » .

وبهذا أثبت أن العلوم الحديثة اســلامية فى نشأتها وتقــدمها وأن الغرب استعارها من المسلمين ثم سار بها شوطا كبــيرا فى سبيل النمــو والازدهار على حــين تركها أصــحابها واستناموا الى الجهــالة وقنعوا بالتخلف فى هذا المضمار .

وتلت هــذه الصيحة المدوية الصيحة الكبرى التى أطلقها جمــال الدين الأفغانى وصفيه محمد عبده ، وتوالت الصيحات ... ولكنها صادفت فى طريقها بعض العقبات فلم تبلغ تمام النماء .

***

ولما قامت الثورة المجيدة امتدت يدها الكريمة الى جامعــة الأزهر فأزالت من طريقها جميع العقبات ومهدت أمامها جميــع السبل ومنحتها جميع الامكانيات فأصدرت القانون الثورى العظيم رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ .

وبهذا أعادت للأزهر مكانته وفتحت أمامه أبواب المستقبل المجيــد الجدير بهذا المعهد العتيد ورسالته العالمية الخالدة ، وقد تكفل البــاب الخامس من هذا الكتاب بتصوير هذه الثورة المجيدة الخــالدة فى تاريخ معهدنا الاسلامى الكبير .

***

ولهذا لا نكون مبالغين اذا قلنا ان تاريخ الأزهر هــو تاريخ الثقافة الاسلامية منذ القرن الرابع حتى الآن ، وتدوين تاريخ الأزهر هو تدوين لألوان هــذه الحضارة فى مختلف العصــور وما بلغته من نمو وازدهار أو صادفته من قيود وأغلال .

ولقد حاول بعض الباحثين المحدثين أن يدونوا تاريخ الأزهر منذ انشائه الى الآن ، وبذلوا فى هذا التدوين جهودا مشكورة ولكن أبحاثهم على أهميتها كانت بحاجة الى مزيد من العناية والاهتمام لهذا رأت الوزارة أن تعد تاريخا حافلا للأزهر يتناول أمجاده التاريخية وفنونه المعمارية ومناهجه التربوية والكتب الدراسية المقررة فيه ومؤسساته الثقافية العامة . كما يتناول وثبته الاصلاحية الفتية على يد الثورة المجيدة ورئيسها المجاهد الاسلامى الكبير الرئيس جمال عبد الناصر .

***

وقد جاء الكتاب حافلا بالمادة العلمية والصور الفنية ، والخرائط التوضيحية ، والوثائق التاريخية ، والبيانات الرسمية ، مما يوضح تاريخ الجامعة الأزهرية وأدوارها الخالدة فى تاريخ الأمة الاسلامية .

ومن يمن الطالع أن يتم هذا الكتاب عند الاحتفال بتأسيس الدار الكبرى للقرآن الكريم ، وعند انعقاد أول مجمع عالمى للبحوث الاسلامية ، وفى مطلع الاحتفال بالعيد الألفى للقاهرة وللجامعة الأزهرية .

***

ومن توفيق الله وتأييده أن يزداد الاقبال من جميع أنحاء العالم على الجامعة الأزهرية وأن يتخرج منها علماء أعلام من جميع الأجناس فى مختلف القارات يحملون راية الدعوة الاسلامية الى جميع الأمم والشعوب .

ومن علامات التوفيق أن تزداد عناية الجمهورية العربية المتحدة بايفاد علمائها الأزهريين الى مختلف الأقطار تلبية لرغبة الشعوب الاسلامية .

وان جميع المخلصين ليتطلعون فى ثقة وايمان الى أن يتجاوب جميع المسلمين فى ظل الثقافة الاسلامية وأن يتأهبوا لاسترداد أمجادهم الخالدة وأن يستعدوا للدور القيادى الكبير الذى أعدهم له محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام والله المؤيد والمعين وهو ولى المؤمنين .

تمهيد

أن الاحتفال بمرور ألف سنة على الأزهر مناسبة عظيمة نستعرض فيها تاريخ هذا المعهد العريق ، واذا كانت مصر قد وضعتها الأقدار فى هــذا الموقع الخطير على خريطة العــالم حيث تقع مركز اتصــال بين آســيا وأفريقية ، ترسل من أشعتها هنا وهناك ، فان الأزهر قد لعب فى هذا المكان دورا رائعا عظيم الأثر فى الفكر الاسلامى على وجه الخصوص والفكر العالمى بصفة عامة . وقد وقف الأزهر ألف سنة أو تزيد ، يرسل دعاته وأفكاره فى كل اتجاه ، ينشر العلم والمعرفة ، وكانت الدنيا تقفر من حوله أحيانا ، ودور الثقافة تدمر ، ويقف هو وحده يصارع الحوادث ويناضل الأحداث حتى يعيد للشعلة ضوءها الوهاج ، وللمعرفة مكانها المرموق . فأصبح الأزهر بحق ممثلا للفكر الاسلامى ولتاريخ المسلمين .

وربما انصرف بعض الحكام لسبب أو لآخر عن الأزهر واتجهوا لانشاء المدارس يغدقون عليها من هباتهم ورعايتهم ، ولــكنهم كانوا يسيرون بهذه المدارس فى جمع حاشد من شيوخ الأزهر وكتبه واتجاهاته ، فكان نمو هذه المدارس — فى الحقيقة — نموا لفروع أزهرية اتخذت لها أمكنة حوله وأخذت نفسها على أن تستمد منه النور ، ولم يطل عهد هــذه المدارس ، بل كانت حلقاتها قصيرة العمر ، وانفضت منها لتعود للأزهر الأم.

واتسع نشاط الأزهر فشمل السياسة ، ووقف حارسا أمينا يدافع عن استقلال البلاد ويصرخ فى وجه المعتدين على حرماتها ، وبهذا كان الأزهر ملاذ مصر كلما أصابها خطب أو دهمها عدوان ، سواء فى عهد العثمانيين القاتم ، أو فى خلال الاحتلال الفرنسى حيث كان منبر الأزهر منبر مصر ، وصوت الأزهر صوت مصر ، وكان شيوخ الأزهر ورجاله العقبة الكئود أمام طغيان الخونة من أسرة محمد على ، فهم الذين أفتوا بخلع الخديوى توفيق لخيانته مصلحة مصر وضربه الحركة العرابية من الخلف .

وجدير بالأزهر فى عيده الألفى أن يكون موضع الحفاوة والابتهاج لا فى مصر وحدها بل فى العالم الاسلامى كله ، فهو الجامعة الاسلامية التى فتحت أبوابها على أوسع نطاق لتتلقى الطلاب من كل فج ، ولتقدم لهم كل ما تستطيع من عون ورعاية .

وهذا الكتاب لون من الاعتراف بالجميل لهذا المعهد العريق ، انه صورة صادقة تجمع خيوط تاريخه فى صفحات محدودة ، وقد اهتم كثير من المؤلفين القدامى والمحدثين بالكتابة عن الأزهر ، ثم جاء هذا الكتاب فاتخذ من هذه الأبحاث قاعدة له وأساسا وزاد بأن جاء على نسق فنى لم يتح لها أو للكثير منها ، فقد عملت جهود كثيرة لتخطيطه وجمع مادته وكتابته ، وحاولت هذه الجهود أن تصل فى أسرع وقت الى أقصى غاية ممكنة ، محاولة أن تجعل منه هدية تقدير من هذا الجيل لهذا المعهد الكبير .

وقد شمل هذا الكتاب خمسة أبواب :

تحدث الباب الأول عن تاريخ الأزهر ، فسار معه يطوى القرون ويبين مفاخره وأثره فى الأحداث وتأثره بها وكتبه الدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور محمد جمال الدين سرور .

وتحدث الباب الثانى عن العمارة ، وسار مع فنونها خطوة خطوة خلال التاريخ وكتبه الأستاذ حسن عبد الوهاب وزينه بكثير من اللوحات الفنية .

وتحدث الباب الثالث عن التربية والتعليم بالأزهر فوصف الدراسة به عبر العصور وبين مناهجه ووصف حلقاته وسار معها حتى أصبحت مدرجات زاخرة بأسمى الأفكار ، كما وصف الامتحانات والاجازات من جيل الى جيل وتحدث عن الوعظ والفتاوى وهيئة كبار العلماء وصفوة النابهين من أبناء الأزهر ، وكتبه الدكتور أحمد شلبى والدكتور أحمد الحوفى

وتناول الباب الرابع الكلام عن المؤسسات الثقافية بالأزهر وبخاصة مكتبته الضخمة وما تحويه من نفائس وذخائر ومخطوطات وكتبه الشيخ أبو الوفا المراغى .